

الدرس الخامس عشر: فضل قضاء الحوائج

إن من أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى الله وينال بها حب الناس قضاء الحوائج وفعل الخير ومساعدة الآخرين. وقضاء الحوائج مسألة إنسانية تحدثت عنها كل الشرائع السماوية وجميع الدساتير الأرضية.

ويُعدُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من تحدث عن هذا الجانب، وطبقه في حياته، فقد ضرب لنا صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في فعل الخير وقضاء الحوائج قبل البعثة وبعدها؛ ونحن نعلم قول السيدة خديجة فيه لما نزل عليه الوحي وجاء يرحف فؤاده: "كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ؛ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ؛ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ؛ وَتَقْرِي الضَّيْفَ؛ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ". (متفق عليه)؛ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: يَا أُمَّ فُلَانٍ، انظري أي السِّكِّكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكَ حَاجَتَكَ، فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، حَتَّى فَرَعَتْ مِنْ حَاجَتِهَا". (أحمد ومسلم وأبو داود). وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَتْ الصَّلَاةُ تُقَامُ، فَيُكَلِّمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلَ فِي حَاجَةٍ تَكُونُ لَهُ، فَيَقُومُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَبْلَةِ، فَمَا يَزَالُ قَائِمًا يُكَلِّمُهُ، فَرُبَّمَا رَأَيْتُ بَعْضَ الْقَوْمِ لَيَنْعَسُ مِنْ طُولِ قِيَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ. (أحمد والطبراني والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح). فانظر اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بقضاء حوائج الناس؛ فالصلاة أقيمت والصحابة صفوف خلفه؛ ومع ذلك يقضي حاجة المحتاج مهما طال الفصل والوقوف!! حتى أن أحدهم لينعس من كثرة الوقوف!!

والسعي في قضاء حوائج الناس من الشفاعة الحسنة التي أمرنا الله تعالى بها فقال: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا}. (النساء: 85). فعن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ، أَوْ طَلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ. قال: اشْفَعُوا تُوجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ". (البخاري ومسلم).

إن نفع الناس، والسعي في كشف كرباتهم، من صفات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فانظر إلى ما فعله يوسف عليه السلام مع إخوته؛ جهزهم بجهازهم ولم يخسهم شيئاً منه، ووصفه السجناء معه بالإحسان قال تعالى: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}؛ قال قتادة: كان - وهو في السجن - يعزي حزنهم ويداوي مرضاهم ورأوا منه عبادة واجتهاداً فأحبوه؛ وعن الضحاك: كان إذا مرض رجل في السجن قام عليه، وإذا ضاق وسَّع له، وإن احتاج جَمَعَ له وسأله. ("التفسير البسيط للواحدى).

وموسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين مستضعفتين، فرفع الحجر عن البئر وسقى لهما حتى رويت أغنامهما، وهكذا بقية أنبياء الله عليهم السلام لهم السبق في قضاء الحوائج.

ولقد اهتم الخلفاء الراشدون بقضاء الحوائج اهتماماً كبيراً، وكانوا يكتبون إلى ولايتهم بذلك، فقد كتبت عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ لِلنَّاسِ وَجُوهٌ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ؛ فَأَكْرِمْ وَجُوهَ النَّاسِ، فَيَحْسَبِ الْمُسْلِمُ الضَّعِيفِ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ يُنْصَفَ فِي الْحُكْمِ وَالْقِسْمَةِ. (المجالسة وجواهر العلم لابن عبد البر)..

وكان عمر بن الخطاب إذا بعث عماله شرط عليهم ألا تركبوا برذونا ولا تأكلوا نقيًا ولا تلبسوا رقيقًا ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس فإن فعلتم شيئًا من ذلك فقد حلت بكم العقوبة قال ثم شيعهم فإذا أراد أن يرجع قال إني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أعراضهم ولا على أموالهم ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسموا فيهم وتحكموا بينهم بالعدل فإن أشكل عليكم شيء فارفعوه إلي ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ولا تعتلوا عليها فتحرموها. (مصنف عبدالرزاق). وعن أبي الحسن ، قَالَ : قَالَ عَمْرُو بْنُ مُرَّةٍ لِمُعَاوِيَةَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " مَا مِنْ إِمَامٍ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ ، وَالْحَلَّةِ ، وَالْمَسْكِنَةِ ، إِلَّا أَغْلَقَ اللَّهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِهِ ، وَحَاجَتِهِ ، وَمَسْكِنَتِهِ . فَجَعَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلًا عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ . " (أحمد والترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي).

وقد ربي الرسول - صلى الله عليه وسلم - أصحابه على أعمال البر والخير والعون والمساعدة وقضاء الحوائج؛ حتى أصبح حق أحدهم ملكاً للجميع؛ فعن أبي سعيد الخدري قال: " بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ : فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصْرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ ؛ وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ . قَالَ : فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ . " (مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كُلُّ سَلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ ؛ تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي ذَاتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا ، أَوْ تَرَفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ ، وَتُحِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ . " (متفق عليه) .

فما أجمل أن يسعى الإنسان في قضاء حوائج المسلمين وتفريج كربهم وتقديم يد العون لهم؛ ولا سيما في هذا الشهر الفضيل؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ؛ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ؛ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . " (متفق عليه) .

وعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ " (مسلم). قال الإمام النووي: " فيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة وغير ذلك، وفضل الستر على المسلمين، وفضل إنظار المعسر. " (شرح النووي على مسلم) . وعن ابن عمر ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُورُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تُطْرِدُ عَنْهُ جَوْعًا ، وَلَئِنْ أَمْشَيْتَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ، يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ ، شَهْرًا ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ ، مَلَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ ، أَثْبَتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ . " (ابن أبي الدنيا في كتاب: قضاء الحوائج، والطبراني وغيرهما، بسند حسن).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "صِنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ الشُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصَلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمْرِ". (رواه الطبراني بسند حسن). والمصرع: هو مكان الموت، فيقي الله من يحسن إلى الناس بقضاء حوائجهم من الموت في مكان سيء أو هيئة سيئة أو ميتة سيئة.

كل هذه النصوص وغيرها الكثير الهدف منها جعل المسلمين جميعاً ذكوراً وإناثاً يشعرون بروح الجماعة الواحدة المرتبطة ببعضها البعض مادياً ومعنوياً في العون والمساعدة وقضاء الحوائج؛ فهم كالفرد الواحد وكالجسد الواحد؛ تسعد الأعضاء كلها بسعادته وتحزن لحزنه، فعَنْ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى" (مسلم)

لذلك كثرت أقوال السلف حول الحث على فعل الخير وقضاء الحوائج؛ يقول الحسن البصري رحمه الله: "لأن أفضي حاجة لأخ أحب إليّ من أن أصلي ألف ركعة، ولأن أفضي حاجة لأخ أحب إليّ من أن أعتكف شهرين". وقد قيل: "العجلة من الشيطان" إلا في خمس: إطعام الضيف؛ وتجهيز الميت؛ وتزويج البكر؛ وقضاء الدين؛ والتوبة من الذنب. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لأن أعول أهل بيت من المسلمين شهراً أو جمعة أو ما شاء الله أحب إليّ من حجة، وَلَطَبَقُ بِدَرَاهِمِ أَهْدِيهِ إِلَى أَخٍ لِي فِي اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دِينَارٍ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ".؛ ويقول مالك بن دينار: "إن صدور المسلمين تغلي بأعمال البر وإن صدور الفجار تغلي بأعمال الفجور، والله تعالى يرى همومكم فانظروا ما همومكم رحمكم الله.!!؟ وكان أبو وائل يطوف على نساء الحي وعجائزهن كل يوم فيشتري لهن حوائجهن وما يصلحهن. وقال مجاهد: صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه فكان يخدمني. قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم * * * فطالما استعبد الإنسان إحساناً
وكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لذي أملٍ * * * يَرَجُو نَدَاكَ فَإِنَّ الحُرَّ مِعْوَانُ
وأشدُّ يدِيكَ بِجِبَلِ اللَّهِ مَعْتَصِمًا * * * فَأَنَّهُ الرِّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ
من كان للخير مناعاً فليس له * * * على الحقيقة إخوانٌ وأخْدَانُ
من جاد بالمال مالَ النَّاسِ قَاطِبَةً * * * إِلَيْهِ وَالْمَالُ لِلإنْسَانِ فَتَانُ

وكان علي بن الحسين - رحمه الله - يحمل الخبز إلى بيوت المساكين في الظلام فلما مات فقدوا ذلك، وكان ناس من أهل المدينة يعيشون ولا يدرون من أين معاشهم؟! فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك الذي كان يأتيهم بالليل .
فكن - أيها الحبيب - في قضاء حوائج الناس يكن الله تعالى في قضاء حاجتك، واسع لتفريج كرباتهم يفرج الله عنك كربات الدنيا والآخرة؛ ولا تتباطأ في ذلك؛ فإن المحاويع في لهف وشغف إليك لتقضي حاجتهم؛ قال أحدهم معاتباً من تباطأ في قضاء حاجة له:

حَوَائِجُ النَّاسِ كُلُّهَا قُضِيَتْ * * * وَحَاجَتِي مَا أَرَاكَ تَفْضِيهَا
أَنَاقَةُ اللَّهِ حَاجَتِي عُقِرَتْ * * * أَمْ أَنْبَتِ الحُرْفُ فِي حَوَاشِيهَا

فما أعظم هذا الدين الذي جعل مساعدة الناس وقضاء حوائجهم بهذه المنزلة العظيمة، بل وحتى مساعدة الحيوانات، ولنقرأ هذا الحديث العظيم لنعلم فضل دين الإسلام وأن فيه صلاح الدنيا والآخرة وأن البشرية لم يصبها الشقاء إلا بعد أن تركت الأخذ بهذا الدين العظيم، ففي صحيح البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنَّ امْرَأَةً بَعِيًّا رَأَتْ

كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبئرٍ قَدْ أَذْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ؛ فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِفِهَا فَغُفِرَ لَهَا . والبغي: هي المرأة الزانية. ومع هذا، غفر الله لها بهذه المساعدة لهذا الحيوان، فكيف بمساعدة الصالحين لإخوانهم وأخواتهم وقضاء حوائجهم؟ لا شك أن ثوابه أعظم!!

ولا يقتصر السعي في قضاء حوائج الناس على النفع المادي فقط، ولكنه يمتد ليشمل النفع بالعلم، والنفع بالرأي، والنفع بالنصيحة، والنفع بالمشورة، والنفع بالجاه، والنفع بالسلطان. كما أن ذلك لون من ألوان الصدقة، فعن أبي سلام، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ صَدَقَةٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ أَيْنَ أَنْصَدُقُ، وَلَيْسَ لَنَا أَمْوَالٌ؟ قَالَ: لِأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ: التَّكْبِيرَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعَزُّلُ الشُّوْكَةَ عَنِ طَرِيقِ النَّاسِ، وَالْعِظْمَ، وَالْحَجَرَ، وَتَهْدِي الْأَعْمَى، وَتُسْمِعُ الْأَصَمَّ وَالْأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهُ، وَتَدُلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا، وَتَسْعَى بِشِدَّةٍ سَاقِيكَ إِلَى اللَّهْفَانِ الْمُسْتَعِيثِ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةٍ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَكَ فِي جَمَاعِكَ زَوْجَتَكَ أَجْرٌ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كَيْفَ يَكُونُ لِي أَجْرٌ فِي شَهْوَتِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ وَلَدٌ فَأَدْرَكَ، وَرَجَوْتَ خَيْرَهُ، فَمَاتَ، أَكُنْتَ تَحْتَسِبُ بِهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنْتَ خَلَقْتَهُ؟ قَالَ: بَلِ اللَّهُ خَلَقَهُ، قَالَ: فَأَنْتَ هَدَيْتَهُ؟ قَالَ: بَلِ اللَّهُ هَدَاهُ، قَالَ: فَأَنْتَ تَرْزُقُهُ؟ قَالَ: بَلِ اللَّهُ كَانَ يَرْزُقُهُ، قَالَ: كَذَلِكَ فَضَعَهُ فِي حَلَالِهِ، وَجَبَّهَ حَرَامَهُ، فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ أَحْيَاهُ، وَإِنْ شَاءَ أَمَاتَهُ، وَلَكَ أَجْرٌ. (أحمد والبيهقي في الشعب والنسائي في الكبرى بسند حسن). ومن نعم الله تعالى على العبد أن يجعله مفتاحاً للخير والإحسان، فعن سهل بن سعد، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "عِنْدَ اللَّهِ خَزَائِنُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، مَفَاتِيحُهَا الرِّجَالُ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، وَمِغْلَاقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلشَّرِّ، وَمِغْلَاقًا لِلْخَيْرِ". (ابن ماجه والطبراني بسند حسن). وأن يسخره الله لقضاء حوائج الناس، فعن ابن عمر، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلَّهِ أَقْوَامًا اخْتَصَّوهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقْرَهُا فِيهِمْ مَا بَدَلُوها، فَإِذَا مَنَعُوها نَزَعَهَا عَنْهُمْ وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ". (الطبراني وابن عساكر). قال أبو العتاهية:

اقض الحوائج ما استطعت*** وكن لهم أخيك فارح

فلخير أيام الفتى*** يوم قضى فيه الحوائج

ولقد ضرب لنا السلف الصالح أروع الأمثلة في قضاء الحوائج وفعل الخير؛ فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتعهد امرأة عمياء في المدينة يقضي لها حاجاتها سراً إبان خلافته للمسلمين، وكان يجلب لأهل الحي أغنامهم، فلما استخلف وصار أمير المؤمنين قالت جارية منهم -يعني من نساء الحي- بعد أن صار أبو بكر خليفة: الآن لا يجلبها. تقول: لقد صار قائد الدولة وأمير المؤمنين يسير الجيوش ويتحمل المسئوليات هل يلتفت إلى غنمنا ويجلبها؟ الآن لا يجلبها، فسمع بذلك أبو بكر رضي الله عنه فقال: بلى، وإني لأرجو ألا يعيرني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله. (التبصرة لابن الجوزي وجامع العلوم والحكم لابن رجب).

ومن أروع الأمثلة في قضاء حوائج الناس ما فعله عثمان ذو النورين - رضي الله عنه -؛ "فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال من يشتري بئر رومة يوسع بها على المسلمين وله الجنة؟ قال: فاشترها عثمان بن عفان رضي الله عنه من يهودي بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وسبلها للمسلمين؛ وكان اليهودي يبيع ماءها. وفي الحديث أن عثمان رضي الله عنه اشترى منه

نصفها باثني عشر ألفا ؛ ثم قال لليهودي اختر إما أن تأخذها يوما وآخذها يوما وإما أن تنصب لك عليها دلوا وأنصب عليها دلوا ؛ فاختر يوما ويوما ؛ فكان الناس يستقون منها في يوم عثمان لليومين ؛ فقال اليهودي: أفسدت عليّ بئري فاشتر باقيها ؛ فاشتره بثمانية آلاف ” (زاد المعاد لابن القيم) تخيلوا يا عباد الله أنه لا يوجد بئر ولا ماء للمسلمين غير هذه ؛ وكان عثمان رضي الله عنه قادرا على احتكارها وحده؛ ولكنه مثالٌ للتراحم والتعاون والتكافل؛ وفعل الخير التطوعي لإنقاذ البلاد والعباد من المحن التي حلت بهم؛ وتخيلوا لو أن هذه البئر في أيدي أحد المحتكرين الجشعين وحده في هذا الزمان؛ الذي ندرت فيه المياه؛ ماذا كان يفعل بالمسلمين !!؟

وهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي يسعى لخدمة العجزة والأرامل والمقعدين وقضاء حوائجهم؛ فقد روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه خرج في سواد الليل فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتاً ثم دخل آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: أنه يتعاهدني منذ كذا وكذا يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة أعثرت عمر تتبع؟! وقد ذكروا أن علي بن الحسين كان كثير الصدقة بالليل، وكان يقول صدقة الليل تطفى غضب الرب، وتنور القلب والقبر، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة، وقاسم الله تعالى ماله مرتين. قال محمد بن إسحاق: كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم؟! فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به؛ ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين في الليل. وقيل إنه كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة ولا يدرون بذلك حتى مات. ودخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد يعوده؛ فبكى ابن أسامة؛ فقال له ما يبكيك؟ قال: عليّ دين، قال: وكم هو؟ قال خمسة عشر ألف دينار - وفي رواية سبعة عشر ألف دينار - فقال: هي علي !!” (البداية والنهاية لابن كثير).

ألا ما أحوج البشرية إلى هذه المعاني الإسلامية السامية، وما أشد افتقار الناس إلى التخلق بالرحمة التي تضمّد جراح المنكوبين، والتي تواسي المستضعفين المغلوبين، ولا سيما في هذا العصر، الذي فقدت فيه الرحمة من أكثر الخلق، فلا يسمع في هذا العصر لصرخات الأطفال، ولا لأنين الثكلى، ولا لحنين الشيوخ، ولا لكلمة الضعفاء، لا يسمع فيه إلا للغة القوة، ومنطق القدرة، فإذا استحكّم الظلام في النفوس، وطغى طوفان المادة الجافة آذنت الرحمة بالرحيل، وقال قائلهم: " إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب "، و " إن لم تجهل يُجهل عليك "، و " إن لم تتغدّ بزَيْدٍ تعشَى بك " .

فعليكم أن تكثروا من الأعمال الخيرية وقضاء الحوائج ولا سيما في هذا الشهر الفضيل؛ فإن ذلك يؤدي إلى التعاطف والتعاون والتراحم بين أفراد المجتمع؛ فتنفوزوا بسعادة العاجل والآجل !!!

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية

د / خالد بدير بدوي